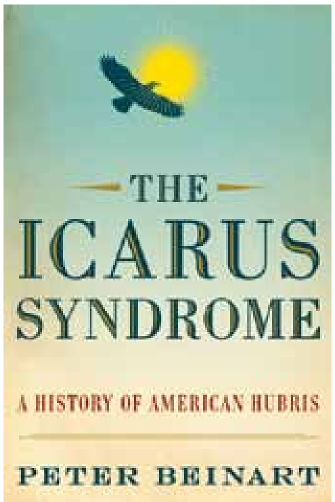

إغراءات السلطة..

بحث في «الغطرسة» الأمريكية ومآلاتها

كتاب: The Icarus Syndrome: A History of American Hubris

(متلازمة إيكاريوس: تاريخ الغطرسة الأمريكية)

الكاتب: Peter Beinart (بيتر بينارت)

الناشر: Harper Collins, New York, 2010

الكتاب، في جانب أساسي منه، هو نتاج مراجعة بينارت لمواقفه المؤيدة الحرب على العراق. والمؤلف خاض تجربة مشابهة إلى حد ما: مراجعة مواقفه كصهيوني ملتزم حيال سياسات إسرائيل الراهنة. فهو قضى شطراً كبيراً من سنوات شبابه صحافياً في مجلة «نيو ريبوبليك» المعروفة بتأييدها البالغ لإسرائيل «غالبة أو مغلوبة»، إلى جانب صاحبها ورئيس تحريرها المسؤول مارتن بيرتز الذي قال «أنا عاشق دولة إسرائيل». هذه العلاقة الوثيقة مع بعض عتاة الصهاينة الأمريكيين، والتاريخ الطويل في الدفاع عن إسرائيل، لم يمنعا بينارت –الصهيوني الليبرالي أو النيو ليبرالي– من توجيه انتقادات شديدة للصهاينة الأمريكيين المؤيدين لتل أبيب لأنهم لم يعترضوا بوضوح وفعالية على سياستها اليمينية التي تزداد تطرفاً باطّراد.
جاء ذلك في مقال بعنوان «فشل المؤسسة اليهودية الأمريكية» (جريدة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» الأمريكية – يونيو/حزيران الماضي) اعتُبر وثيقة مهمة حول تبدل في العلاقات اليهودية–اليهودية في أمريكا، ووجود صهاينة باتوا يشعرون أن إسرائيل صارت عبئاً عليهم.

أنجلي شاه*

إذا كان نفوذ شبكة «فوكس نيوز» الإخبارية يشكّل لغزاً محيراً لليسار الأمريكي حالياً، فإن تاريخ السياسة في بلادهم، كما يرويه بيتر بينارت، يوضح أن تلك المعضلة ليست جديدة. ففي الواقع، تتجه النخبة السياسية في أمريكا إلى دفع الأيديولوجيات إلى حدودها المتطرفة القصوى بشكل دوري وكارثي. وهذا يُستقى من الدروس التي يشير إليها الكتاب.

في كتابه السابق الذي يحمل عنوان «المعركة الناجحة: لماذا بإمكان الليبراليين وحدهم كسب الحرب على الإرهاب وجعل الولايات المتحدة عظيمة مرة أخرى؟»، قدّم بينارت في عام 2006 عرضاً لتطور سياسات الليبراليين الخارجية وفق تسلسلها الزمني. ودعاهم إلى اتخاذ موقف قوي في الحرب على الإرهاب، شرط ألا يغيب عن بالهم أن السلطة لا تمثّل دائماً قوة للخير. أما كتابه «متلازمة إيكاريوس» فيلقي نظرة أوسع على الموضوع نفسه، إذ يعيد سرد حكايات النفوذ السياسي في بدايات الحرب العالمية الأولى وفي حربي فيتنام والعراق، ويقسمها إلى دورات أيديولوجية بهدف تذكيرنا بأن القوة والنجاح ينبغي ألا يدفعا إلى تجاهل حدود أيديولوجياتنا.

يحفل الكتاب الحالي باستعارات بلاغية مطوّلة، بدءاً من العنوان الذي يضم اسم إيكاريوس (تقول الأساطير اليونانية إن له جناحين من الريش والشمع؛ ولكنه يطير قريباً جداً من الشمس فيذوب جناحاه ويموت إثر سقوطه). كما يستعمل تشبيهات مثل «كلما ازدادت ثقة قادتنا ومفكرينا بمطرقة القوة الأمريكية، ازداد احتمال عثورهم على مسامير».

صهيوني ليبرالي

يعمل بينارت أستاذاً مشاركاً لمادة الصحافة والعلوم السياسية في جامعة «سيتي يونيفرستي أوف نيويورك» وزميلاً باحثاً في مؤسسة أمريكا الجديدة (نيو أمريكا فاونديشن) وكاتباً سياسياً بارزاً في موقع «ديلي بيست» الإلكتروني الإخباري. وكان بين عامي 1999 و2006 رئيساً لتحرير مجلة «نيو ريبوبليك» المعروفة بتأييدها العميق لإسرائيل. وقد اشتغل لسنوات عدة في المجلة قبل أن يتولى الإشراف عليها.

والمفاجئ في علاقته المتينة بالصهيونية، هو أنه كان شجاعاً إلى حد سلط فيه الضوء على بعض «سقطاتها» الكبيرة. ففي مايو/أيار الماضي نشر مقالاً بعنوان «فشل المؤسسة الأمريكية-اليهودية» في جريدة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» الأمريكية، أثار ضجة لم تكد تهدأ بعد. والسبب يكمن في لفته الأنظار إلى أن ثمة هوة كبيرة في أوساط اليهود الأمريكيين، بين صهاينة «يكرسون أنفسهم لخدمة إسرائيل» و«ليبراليين يكرسون أنفسهم لخدمة حقوق الإنسان للشعوب جميعها، بمن في ذلك الفلسطينيون». واعتبر أنه من حق اليهود الليبراليين أن ينتقدوا أعمال إسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة على الرغم من أنهم يؤيدون هذه الدولة في الوقت نفسه.

غير أن إسرائيل، على أهميتها بالنسبة إليه، لا يرد ذكرها في الكتاب الحالي إلا نادراً. فالمؤلف يناقش بشكل عابر أثر المحرقة النازية (الهولوكست) في مصممي السياسة الخارجية. لكنه لا يشير إلى إذا ما كان لإسرائيل، وسياساتها، دور ما في رفع درجة «الغطرسة» لدى هذا الرئيس أو ذاك.

يتوجه في كتابه بشكل مباشر إلى المتخصصين في الإعلام والسياسة والتاريخ. فهؤلاء يمثّلون النخب التي يلزمها الإلمام بالدروس المستقاة من سيرة الإخفاقات الأمريكية السابقة. إلا أن سرداً تاريخياً كهذا يوفر مادة خصبة للقراءة، ويتضمّن تحذيرات مهمة للناخبين، كثيراً ما تسوده اللهجة الخطابية.

يرسم بينارت صوراً تفصيلية دقيقة لحياة الرؤساء الأمريكيين، مثل «كان ضغط الدم لدى فرانكلين روزفلت يرتفع إذا شاهد فيلماً سينمائياً عن وودرو ويلسون». ويكشف بذلك أنهم كانوا أشخاصاً لديهم أحلام كبيرة تتعلق بالمبادئ التي آمنوا بها وتتوافر لديهم الثقة أو خداع الذات، بما يلزم لتحقيق أحلامهم. وتلك الغطرسة ليست أمريكية بصفة خاصة، ولكنها غطرسة الأقوياء عموماً.

ووفقاً لما يراه الكاتب، فإن غطرسة الرئيس ليندون جونسون قد أسهمت في بناء رئاسته وهدمها في الوقت نفسه، إذ أتى بعد اغتيال جون إف. كنيدي، الذي كان قد شرع لتوّه في التخلّي عن صورة الشخص القوي وعن سياسته الخارجية، الفاشلة إلى حد كبير. بيد أن الأمريكيين كانوا يبحثون عن قائد مثل كنيدي: من نموذج الرجال الذين يقولون «اسأل ماذا يمكنك تقديمه لبلدك»، وعثروا على ضالتهم في جونسون، الذي ساعدت «غطرسة القوة» عنده على تسهيل انتخابه للرئاسة. وهذه الغطرسة نفسها هي التي دفعته إلى توريط أمريكا أكثر فأكثر في حرب فيتنام، ما قضى على فرص إعادة انتخابه في نهاية الأمر.

شرك النجاح العسكري

من المفارقات أن رونالد ريغان هو الذي وضع حداً لسياسة «غطرسة القوة». فقد لعب باعتباره رجل هوليوود البارع، دور الرئيس القوي بالنسبة إلى الأمريكيين في الداخل. إلا أنه استخدم قدراً أقل من القوة في الخارج، حيث كانت نزاعاته الداخلية بشأن الحرب ورقابة الكونغرس المتزايدة على السلطة التنفيذية تشكّل قيوداً عليه.

ولكن، مع عهد الرئيس جورج دبليو بوش، فإن التردد حيال خوض الحرب قد نُحّي جانباً. ولم يعد البيت الأبيض يدرس العواقب المحتملة للأمور بالتعقل الذي تقتضيه السلطة، ولم يعد يتّعظ من ذكريات الإخفاقات الحربية ودروسها. يقول بينارت «استمر سقف الدخول إلى غمار الحرب في الانخفاض، بينما ظل سقف تحقيق الانتصار يواصل ارتفاعه». فقد وافق السيناتور جون ماكين على قرار جورج بوش الأب بعدم إسقاط نظام صدام حسين خلال حرب الخليج الأولى بسبب استيائه (ماكين) من تجربته السابقة كأسير حرب في فيتنام. بيد أنه بحلول انتخابات الرئاسة التمهيدية عام 2000، كان ماكين قد استسلم لإغراءات النجاح العسكري وبات واحداً من صقور الحرب. ولم يكن لدى بوش الابن مثل هذا الطموح أو المعرفة الوثيقة بالسياسة الخارجية. وبدلاً من ذلك، فقد خاض حملته الانتخابية معارضاً كلاً من عهد كلينتون ورئاسة أبيه. وعوضاً عن تبنّيه أجندة خارجية جريئة، كان بوش «ميالاً إلى الجسارة والإقدام»، وفقاً لتعبير بينارت. وقد استُنزفت غطرسته في حرب العراق التي شاعت فيها الحسابات الخطأ وسوء الاستعداد إلى درجة جعلتها تشكّل مصدر إزعاج لكل من أمريكا والشرق الأوسط، حتى اليوم.

كتاب «متلازمة إيكاريوس» يمثّل في أحسن الأحوال نقطة انطلاق إلى الحوار المطلوب بشدة حول محرّكات السياسة الخارجية الأمريكية. غير أنه من الكتب التي تترك القارئ معقود اللسان؛ فالكاتب ينطلق في نقاشه من هفوة

تأييده السابق لحرب العراق، لكنه لا يشجب جميع الحروب. وإذ لا يقترح أن تنسحب أمريكا من العالم، فهو لا يجيب أيضاً عن الأسئلة الحادّة التي طرحها هو نفسه. هكذا تبقى تساؤلات من قبيل: هل من الممكن اللجوء في أوقات الأزمات إلى ذلك النوع من التأمل الذاتي الذي من شأنه منع أعمال الغطرسة؟ وهل لذلك جدوى سياسية؟ أو هل يعتبر استمرار دورات النجاح والغطرسة والدمار مسألة حتمية؟

التحدي الذي يواجهه أوباما في الوقت الراهن هو ضرورة تقديمه «البلسم الرمزي الشافي للكرامة الأمريكية المجروحة» وهو يستبدل أسلوب «قوة السلطة المقيّدة» بأسلوب «غطرسة الهيمنة» الذي انتهجه سلفه بوش. ويدعو بينارت إلى قيادة مستنيرة ذات رسالة مختلفة من نوع يصعب التوفيق بينه وبين العبارات المقتضبة بالغة الأهمية المستعملة في الأخبار وفي أشرطة الفيديو على موقع «يوتيوب» الإلكتروني. ويقول «إننا نفتقر حتى إلى مفردات اللغة التي تعبّر عن الخيارات الصعبة». ولذا، فإن القضاء على الغطرسة ليس مهمة الرؤساء أو أعضاء النخب وحدهم؛ ولكنه مهمة الأمريكيين أنفسهم، الذين يبتكرون مفردات أشمل ويتطلبون صياغة السياسات وفقاً لمصالحهم، بدلاً من الغطرسة الأيديولوجية وتفسيراتها المباشرة «الضحلة» لكثير من التساؤلات المطروحة عالمياً والشبيهة بـ«ثقوب سوداء» تتمتع بجاذبية كبيرة. □

* صحافية وكاتبة أمريكية

على عادتها، وجهت «آفاق المستقبل» بضعة أسئلة للمؤلف بقصد إعطائه دوراً في مناقشة الكتاب ومعاينة بعض الأفكار التي أوردها فيه. وهنا الحوار القصير الذي أجري عبر الهاتف:

في ختام كتابك تقدم مقترحات لأوباما من أجل السيطرة على الدورة التاريخية لـ«الغطرسة الأمريكية». فهل تعتقد أنه سينجح في ذلك؟

إن الجمهور يميل، في أوقات معينة، إلى مقاومة مخططات النخب على نحو أكبر. وبعد حين يشعر الناس بالتعب ويتحررون من الوهم، ويصيرون أقل استعداداً لدفع الضرائب أو التضحية بحياتهم في سبيل أجندات تحرّكها النخب. ويقود هذا إلى إمكانية دفع سياسيين آخرين الأمور ضد اتجاهات الغطرسة. وفي اعتقادي أن أوباما يتصارع مع كل هذه الأشياء: فمن ناحية، هناك القيود الخطرة التي تؤثر في طول المدة التي يمكن لأمريكا أن تبقى خلالها منخرطة في هذه الحروب. ومن ناحية أخرى، هناك المخاوف السياسية لدى الديمقراطيين خاصة جراء تعرضهم للهجوم من قِبل اليمينيين. وقد كانت بعض عناصر السياسة الخارجية جيدة إلى حد ما. وأعتقد أنها كانت كذلك إلى الحد الذي جعلهم يتمكّنون من إجراء بعض التحفيز العالمي المنسّق في بداية رئاسة أوباما. وأرى أن سياسة أفغانستان ربما تشكل موقفاً ينجرف فيه أوباما بعيداً عن الجيش بسبب الضغوط، وربما بسبب مخاوفه السياسية أيضاً، من دون أن يقتنع بأن هذا المسعى الذي يورّط نفسه فيه غير قابل للاستدامة إلى أي حد.

كيف تريد للقراء في منطقة الشرق الأوسط أن يروا كتابك؟ وما الدروس التي يتعيّن عليهم أن يستخرجوها منه في اعتقادك؟

أعتقد أنه ينبغي لهم إدراك أن السياسة الخارجية الأمريكية ليست استاتيكية، بل تتغير تجاوباً مع الأحداث. وإذا كان من السهل على القراء في منطقة الشرق الأوسط أن يعربوا عن أمنياتهم بأن تنسحب أمريكا من العالم، فإنه يتوجب عليهم أيضاً الانتباه إلى تلك الأجزاء من الكتاب التي تشير إلى كون الانخراط الأمريكي في العالم، بما فيه التدخل العسكري، يشكّل قوة إيجابية. وعلى سبيل المثال، ربما يكون التدخل الأمريكي في البوسنة وكوسوفو (في أثناء إدارة كلينتون) يمثل أهمية خاصة في السياق بالنظر إلى أنها مجتمعات مسلمة أسهمت أمريكا في إنقاذها من الدمار.

وكيف تؤثر في رأيك «الغطرسة» الأمريكية في سياسات دول أخرى، خاصة إسرائيل؟ وهل تنتهج إدارة أوباما نهجاً صارماً بما فيه الكفاية مع هذه الدولة؟

أرى أن إسرائيل تعاني نوعاً من «الغطرسة» خاصاً بها، وذلك كنتيجة لقدراتها العسكرية. وفي السنوات الأخيرة، لجأت بسرعة مفرطة إلى خيارات عسكرية لحل مشكلات سياسية بشكل جوهري. وأعتقد أن تفوّقها العسكري في محيطها لم يعد أمراً محسوماً تماماً، ولذا فهي باتت حالياً، كالولايات المتحدة، تواجه نوعاً من التحدي كي تعثر على أدوات ومهارات جديدة لضمان أمنها وللاعتراف بأن الاستعمال المتعجل للقوة العسكرية يمكن أن يؤدي إلى نتائج معاكسة.

ويبدو لي أن إدارة أوباما قد بذلت بعض الجهود لحمل الحكومة الإسرائيلية على قبول حل الدولتين مع أن الأخيرة لا تبدي اهتماماً كبيراً به، كما تضغط على تل أبيب بسبب سياسة المستوطنات على سبيل المثال. وتكمن المشكلة في أن الحكومة الإسرائيلية ليست راغبة كثيراً في التفاوض على دولة فلسطينية لأنها (تل أبيب) تعتقد أن القيادة الفلسطينية ضعيفة، ما يعني أن الدولة ستسقط في قبضة «حماس». هناك قيادة فلسطينية في الضفة الغربية راغبة في إقامة دولة فلسطينية، بيد أنها ليست قوية إلى حدّ يسمح لها بتحقيق هذه الغاية. شخصياً، لا أعارض انتهاج إدارة أوباما سياسة صارمة حيال توسع المستوطنات. لكني أشعر أن الظروف في الواقع ليست جيدة للأسف، وما دام الفلسطينيون مقسمين فإنه سيكون، من وجهة نظري، من الصعب إجراء مفاوضات بشأن حل الدولتين.